مجلة الآداب، م٢٧، ع١ ، ص ص١٥٣-١٧٥ ، جامعة الملك سعود، الرياض(٢٠١٥م/ ١٤٣٦هـ)

الرحلة وجه من أوجه السيرة الغيرية
" رحلة ابن الحاج النميري أنموذجاً"

عمر فارس الكفاوين

أستاذ مساعد أدب أندلسي، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والفنون، جامعة فيلادلفيا، المملكة الأردنية الهاشمية

قدم للنشر ١٤/ ٦/ ١٤٣٥هـ، و قبل للنشر ١٣/ ٧/ ١٤٣٥هـ

الكلمات المفتاحية: الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة، فن السيرة، التجنيس الأدبي.

ملخص البحث:جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على تداخل أدب الرحلة مع جنس أدبي آخر هو فن السيرة الغيرية، وقد اتخذت من رحلة ابن الحاج النميري نموذجاً لذلك، منطلقة من مبدأ أن الرحلة وجه من أوجه السيرة الغيرية. وقد ركزت الدراسة على أبرز المحاور الأساسية التي جعلت الرحلة تتداخل وتتعالق مع السيرة الغيرية، فرصدت مسيرة حياة الغير المتمثل بشخصية أبي عنان المريني بطل الرحلة ومحركها الأساسي، فأبرزت صفاته وثقافاته وبطولاته ومجريات حياته، ثم ركزت الدراسة على جماليات السرد في النص كالسارد ووظائفه وبنيتي الزمان والمكان، كل هذه الجماليات جاءت في خدمة سيرة أبي عنان، مما ساهم في جعل الرحلة مؤهلة كي تدخل في إطار السيرة الغيرية.

المقدمة

مما لا شك فيه أن الرحلة في الأدب العربي وسيلة من الوسائل التي تسهم في اكتشاف الغير في مرحلة معينة من الزمن، والرحلات بجميع أصنافها تجسد الآخر أو

الغير بفئاته المختلفة، بالإضافة إلى أنها تصور الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم والأمكنة والأزمنة ومظاهر الحضارة والعمران، وتسهم في التواصل بين تلك الشعوب.

كل ذلك جعل الرحلة جنساً أدبياً ملتبساً من الصعب ضبط محدداته النوعية؛ لأنه يتداخل مع فنون أدبية أخرى كالسيرة الذاتية أو الغيرية أو المذكرات أو الرواية أو القصة أو غيرها، وإذا كان السفر هو المحرك الرئيس للرحلة، فإن كثيراً من الأجناس الأدبية الأخرى يكون السفر محركاً لها أيضاً، فأدب السيرة مثلاً في بعض تجلياته يكون معتمداً على بنية السفر، ذلك أن صاحب السيرة سواء أكانت ذاتية أم غيرية يرصد تحركات البطل وسفره والأمكنة التي يزورها ويشارك في صنع أحداثها أو يصنعها هو بنفسه.

وبعد التقصي وجدت أن رحلة (ابن الحاج النميري) يمكن أن تكون وجهاً من أوجه السيرة الغيرية؛ ذلك أن كاتبها لم يكن له نصيب من رحلته إلا الكتابة والتدوين، حيث اختفت شخصيته وراء شخصية ملكه (أبي عنان المريني)، فالرحلة في جميع مراحلها وأبعادها تدور في فلك (أبي عنان)، حتى يمكن القول إنها رحلة (أبي عنان) أو سيرة غيرية كتبها (ابن الحاج) لـــ(أبي عنان) في مرحلة من مراحل حياته. والناظر في النص أو المتتبع لأحداثه يدرك أنه تخطى فن الرحلة لينطلق إلى التركيز على حياة بطلها، مما أدى إلى جعلها تبدو وكأنها سيرة لذلك البطل عبر تجليات حياته المختلفة.

وقد جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على ذلك منطلقة من مبدأ تداخل أدب الرحلات مع فن السيرة الغيرية، متخذة من رحلة (ابن الحاج) نموذجاً لذلك، وتناولت الدراسة بعض الأمور المتعلقة بالرحلة ودوافعها ومسارها، ثم رصدت ملامح التقارب بينها وبين السيرة الغيرية، والتركيز على شخصية الغير (أبي عنان) وصفاته وثقافاته وبطولاته، ثم الحديث عن جماليات السرد كالسارد ووظائفه وبنيتي الزمان والمكان ومحاورهما، ثم جاءت الخاتمة لترصد أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

وقد اتكأ الباحث على المنهج الوصفي التحليلي، منطلقاً من النص القديم ليكون هو الدليل والبرهان، ومحل التأمل ومنطلق بناء الأحكام، وكان لا بد من النظر في جماليات النص وتقنياته انطلاقاً من المنهج الشكلي الذي يرصد فنية النص وشعريته.

١-**بين يدي الرحلة:** تعد رحلة (ابن الحاج

النميري) [١] ذات طابع خاص تميزت به عن غيرها؛ ذلك أنها جاءت على لسان (ابن الحاج)، إلا أنه لم يكن له نصيب في أحداثها إلا ما ندر، كونها بدت كأنها رحلة (أبي عنان المريني) [٢] ، أما إطار الرحلة فهو المغرب العربي في حدوده، وعصرها عصر (الدولة المرينية) [٣].

ومن الجدير بالذكر أن زمن الرحلة (عهد بني مرين) يمثل مرحلة الاستقرار والازدهار واكتمال النضج وبلوغ القمة، وإنجاز أهم الآثار، وتحقيق المشاريع الكبرى السياسية في الداخل والخارج، وتنفيذ المخططات الاقتصادية والثقافية، وإشاعة الرخاء والأمن والطمأنينة، وبث دور العلم ومراكز التعبد وتعميم التعليم، وتشجيع الطلبة المستقرين أو المتنقلين. (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٦).

أما بواعث الرحلة فترجع إلى مجموعة من الأسباب الدينية والروحية والسياسية التي دفعت السلطان للقيام بها، إذ أراد أن يجمع كلمة الإسلام، ويوحد صفوف المسلمين، ويقضي على الفتن التي يثيرها

(١) هو أبو القاسم برهان الدين إبراهيم بن عبدالله بن محمد ابن إبراهيم بن قاسم النميري الغرناطي المعروف بابن الحاج، وأجداده معروفون ببني أرقم، وهو من أسرة عريقة، وهو أديب أندلسي من كبار الكتاب، ولد بغرناطة سنة ٧١٣هـ، وقيل ٧١٢هـ، وارتسم في كتاب الإنشاء سنة ٧٣٤هـ، ثم رحل إلى المشرق وعاد إلى تونس، وخدم الملوك كسلطان المغرب الأقصى، وله شعر جيد وتصانيف منها (المساهلة والمسامحة في تبيين طرق المداعبة والممازحة) و(تنعيم الأشباح في محادثة الأرواح)، توفي سنة ٧٧٤ه. (ابن القاضي المكناسي، ١٩٧٣م، ص٩١-٩٢).

(٢) هو أبو عنان فارس بن علي، ولد بفاس سنة ٧٢٩ه، وقد خلف والده أبا الحسن علي بن عثمان كسلطان للمغرب سنة ٧٤٩ه، وقد لقب بملك العلماء أو عالم الملوك، وهو أديب وفقيه وشاعر ومحدث وكاتب بليغ، توفي سنة ٧٥٩ه. (لسان الدين بن الخطيب، ١٨٩٨م، ص١٠٢-١٠٣). و (خير الدين الزركلي، ١٩٦٩م، م٥، ص١٢٦).

(٣) هي إحدى الدول التي حكمت بلاد المغرب بعد أن قامت على أنقاض دولة الموحدين في سنة ٦٦٨ه/ ١٢٦٩م،= وقبيلة بني مرين هي إحدى قبائل زناتة الكبيرة التي تتخذ من الصحراء الكبرى موطناً لها، وقد تزعم تلك القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقوى ومحاربة الموحدين، وعملوا على تكوين دولة وتوحيد بلاد المغرب تحت حكمهم، لا سيما في عهد السلطان أبي الحسن المريني وابنه السلطان أبي عنان، وقد بقيت الدولة تحكم المغرب حتى تدهورت أحوالها وكثرت الثورات ضدها مما أدى إلى سقوطها سنة ٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م في عهد آخر سلاطينها عبدالحق بن أبي سعيد بن أبي العباس. (الصلابي، ٢٠٠٣م، ص٢٣٤-٢٣٥).

الأعراب في (ميلة) [٤] و (بجاية) [٥]، ويستجيب لنداء المستغيثين الراغبين في الدخول في طاعة ملوك المغرب بني مرين.

وقد تحدث عن ذلك في مقدمة رحلته، حيث إن السلطان قد بعث الشيخ (أبا عمران) إلى (ميلة) و(بجاية) لإخماد الفتن في هذه الأوطان، فانهزم في (ميلة)، وانتصر في (بجاية)، فاستأذن الشيخ (أبا عنان) في الرجوع إلى هذه الأماكن للأخذ بالثأر. (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م). وفي أثناء ذلك كان (أبو عنان) منشغلاً بمحاربة الإسبان والبرتغال، فلما انتهى من ذلك وتحقق الأمن على السواحل، قال: " إن حركتنا السعيدة في هذا العام إلى قسنطينة التي أظهرت إباء وجاهرت بالعناد اجتراماً واجتراء" (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٦٠).

وهو بذلك يكون قد رسم طريق رحلته وحدد وجهة حركته، فعرض ذلك على المقربين والجيش فساروا معه إلى ميلة وبجاية و (قسنطينة) [٦] و(الزاب) [٧] ، ثم أضاف هدفاً آخر وهو " مسؤوليته عن تأمين الطريق أمام المسلمين خدمة للدين، وتمكيناً من إقامة الشعائر، وبخاصة الحج إلى بيت الله الحرام " (الشاهدي، (د.ت)، ج٢، ص٣٩٦). ويهدف إلى توحيد المسلمين وجمع كلمتهم، فها هو يعلل حركته

(٤) ميلة : مدينة تقع في شمال شرق الجزائر، وقد تعاقبت عليها عدة عهود متتالية، الروماني والوندالي والبيزنطي والمسيحي، ثم الفتح الإسلامي والعهد التركي والعهد الفرنسي، وكانت مركزاً عسكرياً مهماً، وقد استطاع أبو عنان المريني إخضاعها لدولته سنة ٧٥٩ه. (ياقوت الحموي، ١٩٧٧م، م٥، ص٢٤٤).

(٥) بجاية: وسميت أيضاً صالدي أو الناصرية، وهي مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وهي مدينة سياحية تاريخية أسسها الناصر بن علناس أحد ملوك آل زيري في الشمال الإفريقي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. (ياقوت الحموي، ١٩٧٧م، م١، ص٣٣٩).

(٦) قسنطينة: وتسمى مدينة الجسور وعاصمة الشرق الجزائري، وهي من كبريات مدن الجزائر، وقد أسسها الفينيقيون وطورها الرومان من بعدهم، وسميت قديماً (سيرتا)، وقد أعاد الإمبراطور قسنطين بناءها عام ٣١٣م، واتخذت اسمه. (ياقوت الحموي، ١٩٧٧م، م٤، ص٣٤٩).

(٧) الزاب: مدينة جزائرية فيها قرى كثيرة من أشهرها بسكرة وطولقة، وهي منطقة سهلية تقع بين جبل أولاد نايل غرباً وجبال الأوراس شرقاً، وقد حكمها الموحدون في فترة حكمهم، وقيل إن الزاب كلمة بربرية تعني السبخة. (ياقوت الحموي، ١٩٧٧م، م٣، ص١٢٤).

ورحلته بقوله: " اعلم أن المراد أن تجتمع كلمة الإسلام، وتلتئم أحزابها أحسن الالتئام، وتتخلى الدواعي لجهاد عبدة الأصنام، ويُستطاع السير لحج بيت الله الحرام، ويحسم داء الفتنة، وينقضي أمد المحنة "(ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٢٢١).

والمتتبع لأحداث الرحلة يدرك أن أحد الأسباب الرئيسة والمباشرة للقيام بها هي الفتن التي يثيرها الأعراب في تونس وشرق الجزائر (ابن الحاج النميري،١٩٩٠م)، مما دفع (أبو عنان) إلى التدخل المباشر في تلك النواحي، وكان يرغب في إخضاع أولئك الأعراب لسلطته والقضاء على عصيانهم وفسادهم وعبثهم بالسلطة ومصالح الرعية، وجميع أنواع التخريب التي كانوا يرتكبونها، فلقد شغلته هذه القضية شغلاً كبيراً، واستأثرت باهتمامه أثناء الرحلة كلها، لذلك أولاها جميع طاقاته وكامل عنايته. (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م).

وعندما فتح (قسنطينة) لم يتجاوزها إلى (تونس)، فقدم أهل تونس لتقديم الولاء له، فأرسل جيوشه البرية والبحرية لفتح تونس، فجاء أعيانها خاضعين، يقدمـــون الولاء والطاعة، فوقفوا على أبوابه متعجبين، " مرفوعة أبصارهم إلى ما غشي تلك المواقف الشريفة من أنوار الجلال، وأشعة الكمال، وما فاض عليها من أضواء الجمال " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ٣٦٧).

أما مسار الرحلة فقد جاء ضمن خطين رئيسيين: الأول رحلة الذهاب، وتتمثل برحلته إلى (الزاب) ثم (سلا) ثم (فاس) ثم (قسنطينة) ثم (الزاب) مرة أخرى، والثاني رحلة الإياب، وتتمثل بانطلاقه من (إفريقيا) فـــ(الزاب) فـــ(قسنطينة) ثم (فاس) والعودة عن طريق الصحراء.

وفي الواقع أن الرحلة لم توفر تحديداً زمنياً مضبوطاً ودقيقاً لمجرياتها إلا ما ندر، مما شكل ثغرة من الثغرات التي مست سلامة النص، وجعلت الباحث يتخبط في إدراك كثير من الأمور المتعلقة بزمان الرحلة وتواريخ أحداثها.

أما أحداث الرحلة ووقائعها فقد جهز (أبو عنان) لرحلته قبل الشروع بها، فأخذ العدة اللازمة لتنفيذها، وخطط لها ولمسارها، إلا أنه غير هذا التخطيط أثناء الرحلة نفسها، وذلك من خلال توسيعه لإطار الرحلة لتشمل كثيراً من البلدان والأوطان كأوطان إفريقيا مثلاً. وينطلق من (الرباط) إلى (فاس) ثم يقوم برحلته الكبرى عام ٧٥٨هـ إلى (ميلة) ثم (بجاية)، ثم ينطلق إلى (الزاب) فيتوغل في الصحاري، ثم يبدأ برحلة العودة فيقدم إلى (قسنطينة) وغيرها، ويرافق ذلك كله

كثير من الوقائع والأحداث والمشاهدات التي يطول الحديث عنها أحياناً، ويقصر أحياناً أخرى.

الرحلة وجه من أوجه السيرة الغيرية

ظل كثير من الدارسين ينظر إلى الرحلة على أنها وسيلة من وسائل الاكتشاف الجغرافي الفضائي والتاريخي والاجتماعي للآخر وللبلدان، لتصبح بذلك أدباً مقصوراً على هذا النوع من الوصف والمشاهدات، ولم ينتبه الكثير إلى أن الرحلة جنس أدبي تتعلق باندماج ذات الرحالة مع ذات الآخر لتصبح في بعض الأحيان صورة للذات أو الغير، فتتسق مع أنواع وأجناس أدبية أخرى كأدب السيرة والمذكرات وغيرهما.

ومن هنا فإن الرحلة ستكتسب قيمة أدبية تتجلى في " ما تعرضه في موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الفن " (حسين، ١٩٧٦م، ص١٠)، ذلك أنها تتميز بالتنوع الأسلوبي، فتجمع بين السرد القصصي والسيرة والحوار والوصف وغيره، هذا بالإضافة إلى التشويق الذي يؤدي إلى المتعة الذهنية (قنديل، ٢٠٠٢م، ص٢٤)، وإذا كانت الرحلة تقوم على الحركة والترحال فإن هذه الحركة بجميع تجلياتها ما هي إلا وسيلة لرسم الحدث وتصويره كي تجعله يخرج في إطار أدبي قابل للتجنيس، ذلك أن هذه الحركة هي " جوهر الرحلة، وهي مكون أصيل من مكونات الإنسان؛ لأنها دليل حياة " (الموافي، ١٩٩٥م، ص٢٥)، ومحاور هذه الحركة هي التي تجعل من الرحلة جنساً أدبياً متأطراً بذاته ممتزجاً بأشكال سردية أخرى، وخطابات تخرجه أحياناً من الخطاب الرحلي إلى الخطاب السيري أو السيري الغيري.

إن ثمة تماساً كبيراً بين الرحلة وفن السيرة الغيرية، ذلك أن معظم الرحلات تسعى لرسم صورة الآخر أو الغير من خلال مشاهدات الرحالة لذلك الغير، فهم يسعون إلى تقديم تقارير مباشرة له من خلال الحديث عن أمكنته وأزمنته ومنجزاته التاريخية والثقافية والعلمية والحضارية، وما تلك التراجم الأدبية المبثوثة في الرحلات إلا دليل على ذلك.

وإذا ما علمنا أن السيرة الغيرية هي أن يكتب المؤلف ما يعرف عن صاحب السيرة مما خبره وعايشه، فإن الرحلة أيضاً تقوم على هذا الأساس، فالرحالة يدون مشاهداته عن الغير أو الشخص، مما يراه أو يسمعه ويخبره، لكن هذا لا يعني أن الرحلات تُعنى بالغير (الإنسان) أكثر من المكان والزمان والحضارة أو الذات، فقد لجأ كثير من الرحالة إلى التركيز على أمور تخرج عن إطار الغير، كـــ(ابن بطوطة) و(ابن جبير)،

إذ ركزا على وصف الأمكنة والحضارات والبلدان، و(ابن خلدون) الذي ركز على ذاته، وبرزت تلك الذات بروزاً لافتاً في رحلته، و(الغرناطي) الذي ركز على العجائبية، وغير ذلك. إلا أن رحلة (ابن الحاج النميري) في جميع تجلياتها جاءت لتركز على الغير أو الإنسان بحد ذاته، فقد طغت شخصية (أبي عنان) على مجريات الرحلة حتى بدت كأنها سيرة غيرية كتبها (ابن الحاج) عـــن مليكه وسيده (أبي عنان)، فقد التفت إلى هذه الشخصية وأبرز ملامحها وثقافتها، وكان منبهراً بها، ولربما كان سبب ذلك هو وفاء الخادم لمخدومه، ومن هنا فقد ظهرت الرحلة وكأنها سرد غيري، بالرغم من أنها تتضمن كثيراً من مشاهد الوصف للبلدان والأمكنة، إلا أن هذا الوصف جاء في إطار الحديث عن شخصية (أبي عنان) التي ترتاد تلك الأمكنة والبلدان.

وإذا كانت هذه الرحلة رحلة تاريخية بامتياز، فإن ذلك لا يبعدها عن السيرة، فالسيرة منـــذ بداياتها دخلت في حيز التاريخ، حتى إن " بعض المؤرخين كان يرى السيرة جزءاً من التاريخ، بل يرى أن التاريخ ليس إلا سير الحاكمين " (عباس، ١٩٥٦م، ص٢٨)، و(أبو عنان) في رحلته هو حاكم وسلطان من السلاطين الذين لهم دور كبير في صنع التاريخ في المغرب العربي، فحري بـــ(ابن الحاج) أن يؤرخ لهذا الملك الفذ. ولكن هذا التاريخ لا يخرجها من خاصية الأدبية، خاصة أنها تتدفق ببعض عناصر تلك الأدبية كالوصف الذي يؤدي إلى المتعة، وشيء من الخيال، والحوار وغير ذلك.

لقد جسد (ابن الحاج) كل المعايير التي تجعل من رحلته سيرة فنية، ذلك أنه رسم صورة واضحة المعالم والقسمات لـــ(أبي عنان)، فهو في نظره الشخصية النموذج التي تمتلك كل الصفات الأخلاقية والثقافات الدينية والأدبية والعلمية التي تؤهلها لكي تصبح نموذجاً، و " هذه العناية بالإنسان أو الفرد في إطار الجو التاريخي، وتطور حياته وشخصيته وتكاملها هي معيار السيرة ومرتكزها " (عباس، ١٩٥٦م، ص٦٠).

إن رحلة (ابن الحاج) غدت في معظم مراحلها سيرة أدبية لإنسان بعينه، فهي " صورة تتآلف من بضعة خطوط سريعة حاسمة، يبرز من خلالها إنسان " (قطب، ١٩٤٦م، ص٣١٥)، هذا الإنسان هو بطل الرحلة وصاحبها (أبو عنان)، ومن خلال النص فإنك " تتعرف على الفور من هو هذا الإنسان الذي يحدثك عنه، وتتبين سماته وملامحه من بين كثير من الناس الذين ينتمي إليهم" (قطب، ١٩٤٦م، ص٣١٥)، ثم إنك تتعرف على أخباره وأعماله، وتدرك خصائصه وتلحظ مزاجه.

وقد رصد (ابن الحاج) تحركات هذا البطل الملك الفارس، وجعله صانعاً للأحداث مسهماً فيها عن طريق السرد المتتابع، الذي يؤهله ليكون سيرة أو ترجمة غيرية، خاصة إن السيرة ما هي إلا " سرد متتابع لدورة حياة شخص، وذكر الوقائع التي جرت له أثناء مراحل هذه الحياة أو في فترة منها "(الموسوعة العربية العالمية، ١٩٩٦م، م١٣، ص٣٦٧)، والمتتبع لنص الرحلة يجد أنها ترجمة لفترة من الفترات المضيئة

في حياة (أبي عنان)، إذن فقد وجه الكاتب اهتمامه وعنايته نحو حياة البطل، وهذا مطلب من مطالب السيرة، خاصة أنها " تهتم بتسجيل الأحداث والحروب والوقائع المختلفة في حياة فرد من الأفراد" (مجموعة مؤلفين، ١٩٩٧م، ص١٩٢)، فهي تعرض أعماله " متصلة بالأحداث العامـــة أو منعكسة منها أو متأثرة بها " (عباس، ١٩٥٦م، ص١١).

وإذا كان هناك إشكالية في التجنيس تقودنا إلى قضية الوعي بالكتابة، ليس من حيث كونها الصيغة الفنية الجمالية، وإنما حصيلة الأحداث التي تشكل فيها شخصية (أبي عنان) المحور والمدار، وبذلك تأتي السيرة الغيرية لتدخل في إطار الرحلة، وفق نظام التجنيس الأدبي، فالرحلة مروية من طرف (ابن الحاج) وليست من طرف (أبي عنان)، لكنها تدور حول شخصية هذا الأخير، لذلك فإنها تتحول إلى سيرة غيريـــــة.

ولعل (ابن الحاج) كان يهدف من ذلك إلى تخليد ذكر هذا البطل وإخراجه من عالم النسيان، بعد أن طواه الموت وغيبه، باعتباره شخصية مشهورة مؤثرة في عصرها وفي العصور اللاحقة، ولا غرو أن يكون (ابن الحاج) معجباً بها، فيسعى إلى إبرازها وتبيان دورها في التاريخ والحضارة، لذلك يتبع مذهباً أدبياً يقوم على النزعة الالتزامية كالواجب وإصلاح المجتمع والبذل في سبيل الغير.

وبذلك فإن هدفه يتفق مع هدف السيرة، ذلك أن "الغاية من كتابة السيرة تتمحور حول الرغبة في التعرف على تاريخ حياة شخص من الأشخاص، تدور حوله الأحداث والمواقف، وتلتقي عنده الشخصيات الأخرى، فيرتد كل ذلك منعكساً من داخل نفس المترجَم له إلى خارجها بروحه وفكره وشخصه" (مجموعة مؤلفين، ١٩٩٧م، ص١٩٣).

كما أن (ابن الحاج) التزم بمعيار آخر من معايير أدب السيرة الغيرية، يتمثل بالابتعاد عن المتخيل والأسطرة والميثولوجيا، والالتزام بنقل الحقيقة مع جواز نقل انفعالاته الداخلية إزاء ما تقوم به شخصية (أبي عنان)، كل ذلك مرتبط بوعي (ابن الحاج)

الوجداني لتلك الشخصية، وعمق ارتباطه وعلاقته بها. فيكون بذلك قد أنشأ سيرة فكرية بطولية لذلك البطل (أبي عنان)، وما قام به من حروب وفتوحات وبطولات، لتصبح كتلك السير التي جسدت بطولات كثير من الرجال كسيرة عنترة أو سيرة الظاهر بيبرس أو غيرهما.

ملامح السيرة في رحلة ابن الحاج

لقد جسد (ابن الحاج) في رحلته جميع الملامح التي تجعلها تدخل حيز السيرة الغيرية، إذ إنـــــه رصد جميع الأحداث والأعمال التي قام بها (أبو عنان) في فترة زمنية من عمره، فقد برزت شخصية هذا البطل على مسرح الأحداث بروزاً واضحاً، فهو البطل الرئيس وهو صاحب المواقف المختلفة، وقد تنوعت اتصالاته وسائر ظروفه، وكان يتكيف مع الأحداث ويتعايش مع الأفراد والجماعات التي شكلت محيطه البشري في وقت معين.

وإذا كانت السيرة تنتظم وفق تسلسل زمني، يبدأ بنقطة معينة من حياة المترجَم له، وتنتهي عند أخرى، فمن الممكن أن تكون رحلة (ابن الحاج) في ترجمته لـــــ(أبي عنان) كذلك، فالبرغم من عدم توفر تحديد زمني دقيق لها، إلا أنه يمكن أن نستشف من الرحلة المرحلة التي تشتمل عليها، ذلك أن نقطة البداية كانت من (فاس)، حيث كان (أبو عنان) يقيم بقصره هناك في شهر رجب من عام ٧٥٧هـ، فمرض في نفس الشهر ثم شفي بعد ذلك، وبدأت حركته في ٢٠ جمادي الأولى يوم الخميس سنة ٧٥٨ه، ووصل إلى (تونس) في ٢٩ جمادي الآخرة من العام نفسه، ثم مر بعدد من البلدان والمدن مثل (طولقة) وغيرها، إلى أن وصل (قسنطينة) ثم (فاس) في غرة ذي الحجة سنة ٧٥٨هـ، ثم العودة (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م).

إذن فالرحلة تمثل سيرة هذا الرجل خلال فترة تمتد لعامين أو أكثر، دون أن نعلم زمن نهايتها، يمكن القول إنها بدأت بمقدمة بينت أحوال هذا الملك ومرضه واستعداده للسفر قبل الشروع في الرحلة، ثم يبدأ العرض المتمثل بمراحل الرحلة ومجريات حياة البطل وأعماله ومجالسه وحروبه، ثم الخاتمة أو النهاية المتمثلة بتحقيق الهدف ثم الرجوع.

وإذا كان (ابن الحاج) هو الراوي للأحداث والسارد لها، فإنه بذلك يرسم شخصية الآخر/ الغير (أبي عنان)، إذ " تفاعلت أبعاد الشخصية في النص الرحلي في تعدديته، بحيث تتنوع تجلياته من خلال استيعاب رؤية الرواي – الرحالة للآخر، سواء الذي يحتك به تحاوراً، أم الذي يسمع عنه بصفته جزءاً من الماضي أو الحاضر " (حليفي، ٢٠٠٣م، ص٢٠٨)،

وهو شخصية حقيقية وليست أسطورية، وهذا مبدأ من مبادئ السيرة وفنيتها، فكاتبها " لا يعتمد على الشخصيات الخيالية أو الأسطورية " (عباس، ١٩٥٦م، ص٨٥)، بل يعتمد على شخصية واقعية.

وقد جعل (ابن الحاج) شخصية (أبي عنان) هي المتمركزة والفاعلة في الرحلة، فهـــي تمثل " الآخر المشارك الذي يحتك به الراوي (الرحالة) فيخبره ويتعامل معه، ويرصد عاداته وسلوكه، ويتمظهر هذا الآخر المشارك من خلال حضوره بأوصافه كما رآها الراوي وأدمجها في مخيلته، وصارت جزءاً كبيراً من الرحلة "(حليفي، ٢٠٠٣م، ص٢١٠).

وقد بدت العلاقة بين (ابن الحاج) و(أبي عنان) منسجمة تماما، ذلك أنه يسعى إلى " إبداع صيغ تقديم هذه الشخصية بحسب شكل تواصلها، فهي العنصر المؤثر في رؤى الراوي (ابن الحاج)، وذات سلطة مادية وروحية عليه " (حليفي، ٢٠٠٣م، ص٢١١)، لذا فإنه يسعى إلى إبراز صورة هذا الغير (أبي عنان) ويجهد في رصد جميع صفاتها وملامحها وبطولاتها ودورها الفعال في الأحداث.

صفات الشخصية (الشخصية النموذج)

لقد اقتحم (ابن الحاج) فضاء وحياة (أبي عنان)، " فجعله مكوناً محورياً من مكونات العلاقة البـصرية القائمة على المشاهدة " (الزاهي، ٢٠٠٣م، ص٢٨)، فهو يشارك (أبا عنان) ويرصد جميع تحركاته وصفاته، فيستدعيه في كافة مراحل الرحلة، فيغدو بذلك "شخصية نموذجية تسهم في بناء النص، وتخلق فيه الحيوية من خلال الحكي والفعل " (مجموعة مؤلفين، ١٩٩٦م، ص١٥٤)، وقد ركز (ابن الحاج) في رصده لسيرة (أبي عنان) على جوانب مرتبطة بخلقه وأخلاقه بصفة عامة، ولم يركز كثيراً على صفاته البدنية، لكن يتضح من خلال الرحلة أنه كان قوياً يتمتع بصحة جيدة، فهو قوي البنية شديد البأس في الحروب، وقد أشار إلى مرضه، فلقد سقط طريح الفراش، واشتد عليه المرض، ومع ذلك لم يمنعه هذا المرض من الصمود والمواجهة ومقاومة الحر الشديد، حتى إنه صام رمضان وهو مريض، يقول: " ثم إن الله تعالى أراد مضاعفة أجره، وزيادة الرحمة الخافضة لجناحه الرافعة لقدره، فشكا الألم الذي رتق الموارد، فشجا العائد العائد،... لكنه لم يزل يتكلف النظر في الأمور، ويجلس للخاصة والجمهور... " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٥٤)، إلا أنه لم يخض كثيراً في تفاصيل هذا الأمر، بل ركز على قوته وشدة بأسه وتغلبه على مرضه.

صفاته الأخلاقية والأدبية

لقد ركز (ابن الحاج) على تلك الصفات الأخلاقية والأدبية التي يتمتع بها (أبو عنان)، فهـــو ملك العلماء وعالم الملوك، وأديب مناظر محاور، وفقيه وشاعر، وبحسب تلك الصفات المبثوثة في الرحلة فإنه شخصية نموذجية يجب أن تحتذى، فقد كان فارساً بطلاً، خاض المعارك الضارية، وانتـصر فيها، وقـضى على العصابات والعابثين بأمن البلاد والعباد (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م). ولاحق قراصنة البحـر على شواطئ (تونس) وما حولها، وكان حريصاً على مصلحة الرعية، ويقوم بأعمال البر والإحسان (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م)، وفي الوقت ذاته كان شديداً في العقاب، كل ذلك يؤكد بأنه شخصية لامعة فذة، بذلت جهدها لفائدة وحدة الإسلام، ولم الشمل في المغرب العربي.

والملاحظ أن (ابن الحاج) قد فصل في صفاته الخلقية الحميدة، فعدد خصاله الطيبة وأطنب في ذلك، منوهاً بشيمه وعاداته وقدراته ومؤهلاته، ثم نجده يدقق في بعض التفاصيل، فيصف لباسه فـــي الحرب، فقد كان يرتدي ملوطة بيضاء تحمل شواشي [٨] كتب عليها أثار مجده، وفوق الملوطة [٩] مصحف ملوكي، وله المظلة الشريفة ويجعل على رأسه بيضة هندية، ويلبس على المصحف غفارة [١٠] حمراء (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م).

ولقد كان (أبو عنان) عنيفاً قوياً عطوفاً، يجمع بين إفراطه في العنف وحكمته ورزانته وتعقله، والدليل على ذلك المعاملة التي صدرت منه تجاه (يعقوب بن علي) الذي أذنب فعفا عنه (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م)، وقبوله لتوبة أمير (قسنطينة) وعفوه عنه، وقبوله لطاعة شيخ أولاد (عيسى بن دريد) و(أولاد ميمون) (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م)، رغم ما صدر عنهم من عصيان وتمرد.

وقد أطال (ابن الحاج) في حديثه عن شجاعة (أبي عنان)، وخوضه المعارك الطاحنة، وقد بث هذه الصفات البطولية في ثنايا نصه، راسماً لـــــ(أبي عنان) صورة الفارس الشجاع الذي لا يهـــاب الموت، ويخوض المعارك بقوة واقتدار، فها هو يصفه في إحدى

(٨) الشواشي: الأزرار.

(٩) الملوطة: قباء واسع الكمين طويلها، كان لباساً قومياً في عصر المماليك، يصنع من الحرير الخالص، يغطي النصف الأعلى من الجسم.

(١٠) الغفارة: قطعة منسوجة من الزرد توضع على الرأس وجمعها غفارات. اللسان/ غفر.

المعارك قائلاً: "مـــن كل صلت [١١] الجبين، أشم العرنين، خارق ذات اليسار وذات اليمين، أشجع من أسامة في الغيل الأشب والعرين..." (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٤٠٠).

ومن صفاته أيضاً انه يهتم بالزينة، فنجده يعتني عناية شديدة بمراسيم الدخول والخروج، ويحرص على أن تكتسي هذه المراسيم بصبغة رسمية وجمالية فائقة تنال من إعجاب الرعية وتؤثر في نفوسهم، وتجعلهم يشعرون بقوة وعظمة دولته، فيكون موكبه عظيماً، يصطف له الناس من رجال ونساء، وتقرع الطبول وترتفع الأصوات بالدعاء، وتغني الفتيات الغناء العذب، ويتبع ذلك أعمال كثيرة يستحسنها الناس كتوزيع الهدايا والأموال (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠).

ويتسم (أبو عنان) بالتدين والتمسك بعقيدة الإسلام، ويبدو ذلك من خلال ممارساته الدينية، فهو لا يتهاون في أمور الدين، ويؤدي العبادات والفروض حتى لو كان في سفر أو حرب، ويحض على تأديتها، فها هو يرسل إلى عماله وقضاته بأن أهم الأمور عنده الصلاة، فلا يجب أن يتهاونوا بها، واهتم ببناء المساجد ودور العبادة وترميمها (ابن الحاج النميري،١٩٩٠م)، واعتنى عناية خاصة بتعليم القرآن، وحث أهل العلم على تعلمه، فهو يقرب حفظة القرآن ويجعل لهم قدراً عظيماً، فعندما وفد إليه أحدهم " أجلسه على كرسي العناية وكرمه، لأجل حفظه القرآن العظيم الذي هو كلام الله قربه وكلمه، وهيأ أسباب السعادة للتالين الذاكرين... " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٧٢).

ثقافته

إن الناظر في النص يدرك أن (ابن الحاج) قد استطرد كثيراً في وصفه لـــ(أبي عنان) وثقافاته المتعددة، حيث جعله عالماً كبيراً من علماء الأمة في ذلك الزمان، فتنوعت ثقافاته الدينية والأدبية والفكرية والعلمية وغيرها، وقد جعل (ابن الحاج) جل اهتمامه أن يبرز ملامح شخصية هذا الرجل المتمثلة بثقافاته الواسعة، وقد ظهرت هذه الثقافات من خلال مجريات ووقائع الرحلة، وتجسدت بتلك الممارسات الدينية والمجالس الأدبية والثقافية التي كانت تعقد، كما أنها برزت من خلال تلك الأحداث التي كان يصنعها البطل، ويسهم فيها فاعلاً ومشاهداً ومتلقياً، فتظهر كثير من انطباعاته الثقافية تجاه ذلك. كل ذلك دونه ورصده (ابن الحاج) في نصه، ومن المعلوم أن هذه المحددات مهمة في السيرة الغيرية، مما جعل الرحلة تقترب إلى حد كبير من هذا الفن.

(١١) صلت الجبين: واضحه. اللسان/ صلت.

ثقافته الدينية

يرصد ابن الحاج ثقافة (أبي عنان) الدينية من خلال مشاهداته لأعماله وأقواله، فيبدو له مهتماً برجال التصوف والصلاح، يكرمهم ويتبرك بهم، وهو نفسه يميل إلى التصوف، فنجده يدخل في روض موحش فيقول: " هذا موضع لا يكون أحسن منه لمن انقطع إلى العبادة، وقطع العلائق في طلب السعادة، وأخلص لعالم الغيب والشهادة، وهو بعيد عن الناس " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٤٤٧)، ونجده أيضاً يزور أضرحة الصالحين والأولياء والزوايا، ويتوقف عندها متبركاً بها (ابن الحاج ١١، النميري، ١٩٩٠م). فها هو يطيل الوقوف عند الزاوية المتوكلة، ويصفها وصفاً دقيقاً، فهي " أعجوبة المغرب والمشرق، ومنشأ أحاديث الهشيم والمعرق[١٢]، مصنع طأطأت له المصانع رؤوسها، ومبنى استصغرت به المباني الشامخة نفوسها" (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٩٣-١٩٥).

و(أبو عنان) يؤمن بالغيبيات ويعتقد بالفأل، وقد برهن عن هذا السلوك بصفة تكاد تكون ثابتة وملحة، فقبل إقدامه على الحركة السعيدة كان مجتمعاً مع (أبي عمران) ورجل آخر أقدم بكتاب ووضعه بين يدي (أبي عمران)، وكان قد ورد في الكتاب من باب التفاؤل: " صنع الله لكم في هذه الحركة الميمونة صنعاً يفتح لكم به شرقاً وغرباً " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٦٢)، فأُعجب الأمير بذلك وتفاءل بالنصر، فقد " أعجبه ذلك اقتداء بالرسول _صلى الله عليه وسلم _ الذي كان يعجبه الفأل الحسن " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٦٢).

ويدخل في هذا الإطار تسميته لإحدى السفن التي صُنعت باسم (الغراب)، حيث ألح (أبو عنان) على استعمالها وركوبها، وكان هو الذي أمر بصنعها، وكانت تمشي في مقدمة الأسطول، وربما كان سبب تلك التسمية أن الغراب رمز للشؤم والويل والخراب الذي سيحل بأولئك الخارجين على القانون، فسيسحقهم الغراب ويهلكهم (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م).

ثقافته الأدبية والعلمية

أما ثقافته الأدبية والعلمية فتتمثل بتلك المجالس التي كان يعقدها، وهي من أعظم المجالس في عصره، وكانت تضم نخبة كبيرة من العلماء والأدباء والشعراء وغيرهم من الشخصيات الثقافية، وقد تميز هذا الملك بثقافة واسعة، برهن عنها في كثير من المناسبات

(١٢) الهشيم: أرض الصحراء اليابسة الواسعة. اللسان/ هشم.
المعرق: العراق، يقال أعرق الرجل فهو معرق إذا دخل بلاد العراق. اللسان/ عرق.

والأحداث، وقد أشار إليها (ابن الحاج) في ثنايا نصه وأكثر من ذكرها، وليس غريباً أن يلتفت (ابن الحاج) إلى هذه الظاهرة ويعنى بتسجيلها؛ لأنه شريك مخدومه ومرافقه، فمن الواجب عليه أن يتابعه ويرصد تحركاته.

ولقد وصف (ابن الحاج) بطل رحلته بأنه مجيد في نظم الشعر والكناية الفنية، " وكان مولانا بظاهر قسنطينة نأخذ من ماله ومن أدبه، ونستغني من العلوم بأنوار سهمه " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٣١٨)، وأن المياه كانت مطردة كحدود علومه، والروضات اليانعة كمنثوره ومنظومه (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م)، وعندما دخل مولانا بجاية وتجول في جنباتها، وانصرف الناس، ولم يبق إلا الخواص الذين يحسنون التخاوض والتفاوض في المنثور والمنظوم وكرع مولانا من المناظرة والمحاورة (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م).

و(أبو عنان) هو أستاذ (ابن الحاج) في النظم، يقول ابن الحاج: (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٥٣):

أعرني أمير المؤمنين بلاغـــــة

فإني عن عـجز لمدحك هائب

وأنطق لساني بالبيـــــــان معلّماً

فإني في التعلـــيم لا الجود راغب

واهتم (أبو عنان) بالشعر والشعراء، وقد تجلى ذلك بشكل واضح في سيرته من خلال الرحلة، حيث شجع الشعراء وأجزل لهم في الهدايا والأعطيات، كتلك التي نالها من يده الكريمة الشاعر (ابن عبدالمنان) الذي نظم قصيدة بمناسبة فتح تونس، وألقاها بين يدي (أبي عنان)، فأجزل لـــه العطايا والصلات (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م)، ومنها قوله في المطلع: (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٣٢٠)

هي الأسعد اللاتي علاك لها قطب

هو النصر سام شهبه الدهر لا تخبو

وبالرغم أن (ابن الحاج) قد أشاد بشعر أبي عنان ووصفه بأنه صاحب قريحة فياضة، وأنه ينظم في شتى الأغراض، إلا أنه لم يزودنا بأشعار كثيرة له من خلال سيرته في الرحلة، وبالرغم من قلة هذه الأشعار إلا أنها تدل على قدرته على نظم الشعر وتمرسه في ذلك، وكان يرتجل الأشعار ارتجالاً، فعندما نظم قاضي الحضرة (أبو عبدالله محمد المقري) قوله: (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٤٤١)

دخلت بلاد الله شرقاً ومغرباً

فلم تر عيني مثل بسكرة يبسا

يقول ابن الحاج: " فزاد عليه مولانا أسرع من ارتداء الطرف، وأوحى من رجع البصر وهو العطف

" (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٤٤١)، فقال: (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٤٤١)

ويا قبح ما اسودّ القتام بوجهها

فمذ غشي الأبصار لم تبصر الشمسا

فخسراً وسحقاً لابن هان لقد غوى

بمـــــدح بلاد الزاب إذ عدم الحسا

ويتابع ابن الحاج: " وأشار مولانا أيده الله إلى ما أنشده لنا من شعر أبي القاسم بن هاني الأندلـسي المتجانف في شنيع مدحه لجعفر عن السنني المرضي" (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٤٤١)، كقوله:

خليلي أين الزاب مني وجعفر

وجنّة عدن بنت عنها وكوثر

ويعقب ابن الحاج: " وفي الحين أمرني مولانا أيده الله بالزيادة على ثلاثة الأبيات، وقال: اذكر ابن مزني بأحسن الصفات، فهو حسنة هذه البلاد، وبوجوده أنس الأغوار والأنجاد، فقلت مذيلا:

ولكن به عبد لخير خليفة

جـــواد ينيل الرفد أو يبذل الانسا

فمهما شكت باليبس بسكرة حباً

ببعض عطايا فارس فزكت غرسا

كأن ابن مزن يخلف المزن عندما

يجود إمام لم يدع هديه لبـسا

ولما ناولتها يده الكريمة وأقبل على قراءتها، قال لي: اطوِ بساط هذا النظم، وتقدم لنسخ ذلك الحكم، فذلك أبقى لتطيب نفس ابن مزني " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٤٤١-٤٤٢).

إن الحوار السابق يدل دلالة قاطعة على قدرة (أبي عنان) على النظم، واطلاعه على التراث الشعري، وسرعة بديهته وإتقانه لهذا الفن بالرغم من أنه كان يرتجله ارتجالاً. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل إنه كان ناقداً يستحسن الشعر ويستقبحه، ومن ذلك ما حدث عندما ألقى بعض الشعراء بين يديه بعض الأبيات، وكان من بينهم (ابن الحاج) نفسه، فاستحسن (أبو عنان) بيت (ابن الحاج): (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٢٤١)

فكأنما الأجفان أجفان الظـبا

وكأنـــما الأشفار حد شفار

ومن ذلك يمكن القول إن المقاييس النقدية التي كان يحتكم إليها (أبو عنان) في استحسان الشعر واستقباحه تخضع للمعايير الآتية:

١- الشعر طبع وسليقة: فهو يخضع لما يجود به الطبع، فقد يجود ببيت واحد كما وقع للشاعر (المقري) في بيته الآنف الذكر، وقد يجود ببيتين كما وقع لـــ(أبي عنان) نفسه في حواره مع (ابن الحاج) السابق (ابن

الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٣٦).

٢- الشعر صناعة (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٣٦): ويتمثل ذلك بالنظم على نفس الوزن والقافية والموضوع، ومثال ذلك عندما كلف (أبو عنان) (ابن الحاج) بإتمام الأبيات الثلاثة.

٣- ينبغي للشاعر أن يكون أميناً في تصوير الواقع، وأن يبتعد عن المبالغة والتهويل، ويفهم ذلك من هجوه لـ(ابن هانئ الأندلسي) في وصفه لبلاد (الزاب)، ومن قول (ابن الحاج) الذي بالغ في مدح (أبي عنان) وأخفى صورة (ابن مزني) (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٣٧).

٤- ينبغي للشاعر أن يراعي مقتضى الأحوال، وأن لا يبتعد عن الغرض المقصود، ولقد انحرف (ابن الحاج) عن هذه الطريقة إلى درجة جعلت (أبا عنان) ينهاه عن فعله ويأمره بنسخ ذلك الحكم (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٣٧).

ومهما يكن من أمر، فقد استطاع (ابن الحاج) من خلال نصه الرحلي أن يعرفنا بثقافة (أبي عنان) بمختلف جوانبها، فشكلت هذه الثقافة جزءاً لا يتجزأ من شخصية (أبي عنان)، وكانت عنصراً فاعلاً في صقل تلك الشخصية ومحوراً بارزاً من محاور سيرته التي جسدها (ابن الحاج) من خلال الرحلة.

جماليات السيرة الغيرية في الرحلة

جاءت رحلة (ابن الحاج) سيرة غيرية لـ(أبي عنان)، فتمظهرت بأسلوب سردي جميل يقوم على المبنى الحكائي المشوق، فبرزت فيها كثير من الخصائص التي جعلتها تدخل في حيز فن القص، ومن تلك الخصائص بروز السارد ووظائفه وجماليات المكان والزمان والوصف والحوار وغير ذلك، كل هذه الخصائص جاءت في إطار الحديث عن (أبي عنان)، وتفنيد سيرته ومجريات حياته في فترة من الفترات.

السارد (الراوي)

الراوي في رحلة (فيض العباب) هو كاتبها (ابن الحاج النميري)، فهو يحكي تجربة واقعية عايشها وشارك في أحداثها، لكنه في كثير من الأحيان يدمج روايته برواية بطل رحلته، فيكون هذا البطل هو السارد للأحداث في الوقت الذي يكون هو نفسه صانعها.

وقد " استخدم الراوي السرد بتنويعاته من أجل السيطرة على القارئ عبر استراتيجيات من التشويق وبناء الحكاية الموازية لبناء الذات " (حليفي، ٢٠٠٣م، ص١٣٢) في ظل حكاية الغير (أبي عنان)، ويلجأ (ابن الحاج) إلى استخدام ضمير الغائب وهو يحكي عن بطل الرحلة، فيبدو كأنه شاهد ما يرويه، يقول في بداية

الرحلة: " ودخل شهر رجب من عام سبعة وخمسين وسبعمئة، ومولانا أمير المسلمين مقيم بالمدينة البيضاء... " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٥١).

وهو يلجأ إلى هذا الضمير الغائب في كثير من أحاديثه عن تفاصيل حياة (أبي عنان)، فيكون بذلك بنى سرده على هذا الضمير، واستعمله في حديثه عن البطل، وقد أسهم ذلك في جعل البطل هو صاحب المقام الأول في الرحلة، أما الراوي (ابن الحاج) فمهمته حكي السرد فقط، وأحياناً يبدو راوياً ومشاهداً للأحداث التي يقوم بها (أبو عنان)، وقد يشارك بها قليلاً، لكنه ملتزم بروايتها سواء أشارك أم لم يشارك في صنعها.

وبناء على ذلك فإن الرحلة وفق هذا الراوي الذي يروي ويحكي عن غيره ويكتفي برصد الأحداث ونقلها، فإنه يصنع سيرة غيرية دون أن يشعر؛ لأنه جرد نفسه عن التدخل بأحداث حياة (أبي عنان) ونقلها نقلاً موضوعياً، وهذا كما هو معلوم عنصر مهم من عناصر بناء السيرة.

ومن الجدير بالذكر أن الراوي أو السارد كان يختار العناصر السردية ذات العلاقة بالشخصية الأساسية (أبي عنان) في الرحلة ليكون التجاوب معها، كقوله: "فلما عرف العرب الإفريقيون المذكورين بذلك علموا أن إمامهم الأشرف أدرى بالأمور، وأعرف بمصالح الخاصة والجمهور، وإن النجح وقف على آرائه ورواياته... " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٣٤٧)، وبذلك يستقيم له أن يسرد السلوكات التي تصدر عن السلطان في حق هؤلاء القوم.

وفي الواقع أن السرد في الرحلة لا يتعدى ما يتعلق بالسلطان (أبي عنان) في حله وترحاله ووصف الأماكن والبلدان التي حل بها، حيث يكون الوصف في حيز الحديث عن (أبي عنان)، ولأن السرد اقتصر على الحديث عن سيرة هذا الرجل فإنه جاء غير متسق في بعض جوانبه؛ لأنه يبدأ من نقطة معينة في حياة البطل، ثم لا ينتظم وفق تسلسل مراحل تلك الحياة، بل يقفز من مرحلة إلى أخرى بعيدة عن الأولى، فيهمل أحداثاً ومراحل بين تلك المرحلتين، وبذلك يقوم سرده على الاختيار والانتقاء، إلى أن ينتهي عند نقطة أخرى فتنتهي السيرة هناك.

وتبدو في النص وظيفة شعرية " تتعلق بالخطاب ذاته لمصلحته الخاصة بما هو خطاب غير أن هذه الوظيفة ليست الوظيفة الوحيدة لفن الكلام، إنما تكون فيه مهيمنة ومحددة لطبيعته " (الميلود، ٢٠٠٠م، ص١٨)، وقد حقق (ابن الحاج) هذه الوظيفة

الشاعرية من خلال لغته ووصفه لمسيـــرة حياة (أبي عنان)، وما استعمله من فنون الجمال كالسجع والجناس وغيرهما، كما أنه كان يلجأ إلى الخيال، ففي حديثه عن إحدى معارك (أبي عنان) يقول: " فلم ينشب القواد أن احتلوا ساحتها، وحسنت مناظرهم ومناظمهم بمساحتها، وسمعوا مقالها، وحمدوا مقامها... " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٣٦٠).

وفي سرده لسيرة (أبي عنان) يحقق (ابن الحاج) وظيفة تواصلية، تتجلى من خلال تلك الرسائل والتوجيهات التي كان يكتبها (أبو عنان) ويرسلها إلى الأمراء والعمال والقضاة، وكانت تتضمن كثيراً من الأخبار عن الانتصارات والفتوح، وربما كان يهدف (ابن الحاج) من ذلك أن ينقل لنا صورة من صور حياة هذا الرجل البطل الذكي، وهي صورة تقوم على أساس مـشروعه القائم على توحيد البلاد وتوطيد الصلات مع الرعية والولاة، وتقوية أواصر المحبة والطاعة ونشر الأمن والسلام، وتأتي رسائله هذه كناحية إعلامية اتسم بها (أبو عنان) وجسدها من خلال تلك الرسائل، لما لها من تأثير في الناس واستمالتهم إليه، ومن أمثلتها ما كتبه بعد فتح (قسنطينة) وأرسله إلى عماله في الأقطار، وجاء فيه: "فإنا كتبناه إليكم كتبكم الله فيمن قدم صالح الأعمال، وعبدَ الله مخلصاً له الدين ففاز بنيل الآمال، من منزلنا الأسعد بظاهر قسنطينة يمنه الله تعالى وحرسها... " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٣١٦).

بنية الزمان

لم يخرج الإطار الزمني في الرحلة عن سيرة (أبي عنان المريني)، ذلك أنه يدور في فلك هذا الرجل، لذلك فإنه أحياناً لم يكن متسقاً متسلسلاً، وربما كان السبب وراء ذلك أن (ابن الحاج) يريد أن يقدم من خلال رحلته تلك الوقفات المضيئة في حياة (أبي عنان)، فنجده دائماً يركز على الأحداث المهمة في حياته، ومن هنا فإن الرحلة افتقدت في بعض أجزائها الترتيب الزمني، إذ بدأت من (فاس) يوم ٢٣ جمادى الأولى سنة ٧٥٨ه، ولم يلتزم السارد بذكر الأيام والمراحل، بل يقفز إلى التاسع عشر من جمادى الآخرة، وفجأة ينتقل إلى مدن وبلدان أخرى فيؤرخ بالأحداث وليس بالزمان، ولا يلجأ إلى ذكر التاريخ، بل يكتفي بذكر حدث الوصول وهكذا، لذا فإنه يقول أحياناً: (وفي عشية يوم الوصول) و (في ثاني يوم القدوم) و(في يوم آخر)، حتى إنه لم يحـــدد بالضبط تاريخ فتح (قسنطينة) وغيرها.

ولعله أراد من ذلك أن لا يقيد رحلته بالزمان والتاريخ، بل إنه يريد أن يركز على الأحداث وبطلها

حتى يلتفت إليها المتلقي، ويكون جل اهتمامه بها، وليس بالزمان على أهميته، لتبدو هذه الرحلة كأنها مذكرات لـــ(أبي عنان) أو سيرة غيرية _كما قلنا سابقاً_ يكتبها (ابن الحاج).

وبالرغم من هذا فإن التشكيل الزمني في الرحلة جاء على نحو من الترتيب إذا ما نظرنا إليه من ناحية أنه سرد له زمن طبيعي وآخر نفسي أو داخلي، ذلك أنه جاء مرتبطاً بالإنجاز الواقعي للفعل، والسارد يقوم بوصف ما حدث أو ما قام به (أبو عنان) مرتباً حسب الأحداث؛ لذا فإنه ينقلها نقلاً صادقاً لأنه صادر عن شاهد عيان يرى الأمور والأفعال بأم عينه، بل وأحياناً يشارك فيها.

ومن التقنيات الزمنية في النص تقنية الاسترجاع، وكانت متعلقة بشخصية (أبي عنان)، فهي شخصية لها سوابق حسنة في الدولة المرينية، فنجد ابن الحاج (السارد) يكثر من ذكر الاسترجاعات المتعلقة بـــ (أبي عنان) وفضله حتى يصل إلى حاضر المرحلة، ومن أمثلة ذلك قوله قبل انطلاق الحركة السعيدة لتطهير البلاد من الخارجين على القانون، واصفاً (أبا عنان) مستخدماً تقنية الاسترجاع والاستذكار لما كان يقوم به من أعمال، حيث " كان يجتهد في أعمال البر والتقوى، ويعلّق من إيالته السعيدة بالأسباب التي تقوى، وينظر في مصالح الدنيا والدين تقرباً إلى سامع النجوى... " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص١٦٢).

أما الاستباق فلم يخرج هو أيضاً عن إطار سيرة (أبي عنان)، فقد أورد السارد كثيراً من المقاطع الاستباقية التي لا تخرج من حيز البطل، فهو الذي يستشرف الأحداث متفائلاً مستبشراً بما ستؤول إليه الأمور، ومن ذلك أن (أبا عنان) يستخبر شيخاً مشهوراً عن (قسنطينة) والمتمردين: " وأخبره أنه يفتحها ويأخذها أخذاً يحسن أمورها ويصلحها، وأخبره من أحوال العرب بما نرجو من الله تعجيل وقوعه وظهوره... " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٢٥٥-٢٥٦).أما الوقفة الوصفية فقد كثرت مواضعها في النص، وجاءت فيه كثير من الاستراحات الوصفية، وكلها تتعلق بالبطل، ووصف معاركه ومجالسه، وهذا جعل إيقاع النص يتحرك ببطء أحياناً، ومن أمثلة ذلك وصفه لـــ(أبي عنان) عندما خرج لزيارة بعض الأضرحة، يقول: " وما زال مولانا أيده الله يخرج في خواصه عن الساقة، ويسير برسم الصيادة مطلق الأعنة،بادي الطلاقــة،متنعماً بشقاء الوحش، غير مؤدّ في كسر ثنايا للأرش [١٣] بكلاب شامخة الأنوف، متوالية الزحــوف... " (ابن الحاج النميري،

(١٣) أي لا يؤدي ثمن الفدية. اللسان/ أرش.

١٩٩٠م، ص١٩٤-١٩٥). أما المشهد فمن المعروف أنه يقوم على الحوار، وقد جاءت المشاهد الحوارية في النص على شكل مقاطع سردية متتابعة، وكلها حوارات مع (أبي عنان) ورجاله، والوفود التي تقدم إلى مجلسه، وكان السارد في كثير من الأحيان يخرج المشهد من الحوار المتبادل إلى الحكي، فيبدو المشهد كأنه قصة أو حكاية تحدث في مجلس (أبي عنان) فيرويها السارد، ومن أمثلة ذلك حديثه عن قدوم قاضي (عنابة) _مدينة جزائرية_ مع وفد يرافقه إلى مجلس السلطان (أبي عنان) بـــــ(قسنطينة)، فتحاوروا معه فيما آلت إليه الأمور في بلدهم، فاستجاب (أبو عنان) لمطالبهم وبشرهم بالسرور والأعمال التي تعزهم وتعز بلدهم (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م).

وفي بنية الزمن يلجأ السارد أحياناً إلى ما يسمى (الخلاصة)، وتعني سرد الأحداث التي وقعت في سنوات أو أشهر أو ساعات واختزالها على مستوى الخطاب في صفحات أو أسطر أو كلمات، وهي آلية من آليات تسريع السرد (جينيت، ١٩٩٧م، ص١٠٩-١١٠)، والسارد في الرحلة يحمل سيرة رجل ويريد أن يختزل فيها كل ما هو بارز ولافت للنظر في حياته، لذا فإنه في بعض المقاطع السردية يختصر المسافات بين المدن والبلدان، فلا يشير إليها إلا في مساحة قليلة من النص، ثم إنه يورد الأخبار مختزلة عن بعض المعارك التي قضت الجيوش في إنجازها أياماً وشهوراً، فيختصرها ليركز على بطلها وقائدها (أبي عنان)، متناسياً تلك الأدوار العظيمة التي قام بها أفراد الجيش مـــــن أجل النصر.

بنية المكان

تدور الرحلة في أمكنة كثيرة شكلت مسرح أحداثها، وكان بطل الرحلة (أبو عنان) حاضراً في هذه الأمكنة بشكل لافت، حتى يخيل للقارئ أن السارد يريد لفت الانتباه إلى الجالس في المكان دون أن يهتم كثيراً بالمكان نفسه. وقد تنوعت الأمكنة في النص، فهناك المدن والقرى والقصور والجبال والوديان والسهول والفيافي والبساتين وغير ذلك، وكان البطل هو المحـــرك الرئيس لها، حتى إن السارد لا يتوقف إلا في الأماكن التي حُددت من قبل (أبي عنان)، مثل (بجاية وقسنطينة والزاب) وغيرها.

ويبدو (أبو عنان) هو الصانع للأحداث في المكان، ففي حديث (ابن الحاج) عن قصر (تيجمامين) الذي بناه (عثمان بن أحمد الرياحي)، يقف (ابن الحاج) طويلاً عند هذا القصر، فيصف ساحاته الواسعة وجدرانه العالية المصنوعة من الحجر القديم، ويتحدث عن أركانه التي تحتوي على أبراج، ويطيل في

وصف هذه الأبراج (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م)، ثم يصف الحدائق المحيطة بالقصـر، فهي " جنات في وجوهها نظرة النعيم وحدائق تسهل ألفات غصونها ألسنة النسيم " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٤١٤).

وبعد هذا الوصف الطويل، يأتي دور البطل (أبي عنان)، ويكون فعله هذه المرة في القصر فعل هدم، يقول ابن الحاج: " فأمر مولانا أيده الله بهدمه، وصدر عهده الكريم بإذهاب رسمه...، فتحكمت في تحليل تركيبه المعاول، ولم يعجب من مبنيه إن غيرته العوامل، واستمر العمل على ذلك حتى لصقت أعاليه بالأرض، وحكمت حروف القوس على مرفوعه بالخفض، ثم عمد الجموع المعروفون بأبادين [١٤] إلى الجنات فعموا شجرها قطعاً، وأعدموها أصلاً وفرعاً،... وخرت حيطانها إلى الأذقان

وانسلّت أرضها من ربقة [١٥] الغضب والعدوان " (ابن الحاج النميري، ١٩٩٠م، ص٤١٥-٤١٦).

والسارد هنا يجعل البطل يقوم بأعمال التهديم والتخريب، وبذلك فإنه يكون صانعاً للحدث الذي يجري في المكان، وصحيح أن فعله يبدو للوهلة الأولى بأنه غير صالح، لكن الحقيقة أن هذا البطل أراد أن يدمر آثار الفتنة وصانعيها، فهو يسعى إلى إنهائها وعدم إبقاء شيء من معالمها ليبني مجداً جديداً ودولة حديثة، تقوم على توحيد كلمة الإسلام والمسلمين، وتقف في وجه كل معتد أثيم. ومهما يكن من أمر، فقد استطاع (ابن الحاج النميري) أن يقدم من خلال نصه وثيقة قيمة تجسد سيرة (أبي عنان) في فترة حروبه في المغرب، التي سعى فيها إلى إخماد فتنة الأعراب المتمردين في (شرق الجزائر وتونس وبلاد الزاب) وغيرها، وفي الواقع أن (ابن الحاج) قد أظهر مقدرة عالية في صنع المشاهد البشرية والطبيعية بواسطة اللغة التي طوعها لتكون متسقة مع رؤيته وهدفه المتمثل في رصد سيرة (أبي عنان)، والحديث عن بطولاته وحروبه، ودوره في بناء دولة الإسلام في فترة من الفترات.

الخاتمة

جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على رحلة (ابن الحاج النميري)، التي جسد فيها رحلة الملك (أبي عنان المريني) في المغرب العربي، فبدت كأنها سيرة غيرية لهذا الرجل، ومن المعلوم أن الأجناس الأدبية تتداخل

---

(١٤) أبادين: مجموعة من جند السلطان معروفين بالشدة والبأس، وأصلهم من بلدة أبادين الأندلسية.

(١٥) ربقة: الحبل المشدود، الكربة، الشدة. اللسان/ ربق.

وتتعالق، وقد أثبتت الدراسة من خلال اتخاذها رحلة (ابن الحاج) نموذجاً لهذا التداخل أن الرحلة يمكن أن تكون وجهاً من أوجه السيرة، خاصة أن الرحلة تمحورت في معظم تفاصيلها حول شخصية أخرى غير شخصية صاحبها، فرصدت صفاتها وبطولاتها وأزمنتها وأمكنتها، مما جعل هذه الرحلة تدخل في حيز أدب السيرة الغيرية. وكشفت الدراسة عن أبرز المحاور التي أسهمت في جعل الرحلة تبدو كأنها سيرة غيرية، كالحديث عن شخصية البطل بوصفه شخصية نموذجية وملكاً بطلاً وفارساً، وإبراز ثقافاته المتعددة سواء أكانت دينية أم أدبية أم علمية أم غير ذلك، ومراحل حياته وإسهاماته في صنع الأحداث والمشاركة فيها. كل هذه المحاور تترافد معاً لتجعل النص الرحلي يخرج عن سياقه ليدخل سياق السيرة.

واستطاعت الدراسة إثبات أن أدب الرحلات فن تغمره الحياة، ويزخر بالتجارب الحية، والانتقال من مكان لآخر، وهو بهذا يلتقي بالسيرة، ذلك أن كلمة سار تدل على المسير والانتقال، وتومئ بطول الطريق، وقطع المسافات، وتعدد المراحل، وهذا يتفق مع الكتابات التي تؤرخ لسيرة الإنسان في فترة من فترات حياته.ثم أسهمت الدراسة في الكشف عن جماليات السيرة الغيرية التي برزت في النص، كالسارد وبنيتي الزمان والمكان وجوانبهما، هذه الجماليات التي ارتكزت بشكل أساسي على إظهار دور البطل (أبي عنان) في صنع تجليات السرد وحوادثه، إذ إن الراوي أو السارد بذل جهده في أن يجعل من البطل محركاً رئيسياً لهذه العناصر الجمالية.

المصادر والمراجع

ابن الحاج النميري، أبو القاسم برهان الدين إبراهيم بن **عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن قاسم النميري الغرناطي** (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) *فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب (الرحلة)*، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.

ابن القاضي المكناسي، أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي (ت١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م)، *جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس*، (د.ط)، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٣م.

جينيت، جيرار، *خطاب الحكاية*، بحث في المنهج، ترجمة محمد معتصم وآخرون، ط٢، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، ١٩٩٧م.

حسين، محمود حسني، *أدب الرحلة عند العرب*،

(د.ط)، المكتبة الثقافية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.

حليفي، شعيب، *الرحلة في الأدب العربي*، ط٢، دار القرويين، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٣م.

خير الدين الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي ابن فارس الزركلي (ت١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) *الأعلام*، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٩م.

الزاهي، فريد، *النص والجسد والتأويل*، (د.ط)، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م.

الشاهدي، الحسن، *أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني*، (د.ط)، منشورات عكاظ، المغرب، (د.ت).

الصلابي، علي محمد محمد، *إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين*، ط١، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

عباس، إحسان، *فن السيرة*، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٦م.

قطب، سيد، *كتب وشخصيات*، ط١، مطبعة الرسالة، مصر، ١٩٤٦م.

قنديل، فؤاد، *أدب الرحلة في التراث العربي*، ط١، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

لسان الدين بن الخطيب، أبو عبدالله محمد السلماني (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، *رقم الحلل في نظم الدول*، (د.ط)، المطبعة العمومية، تونس، ١٣١٦هـ/ ١٨٩٨م.

مجموعة مؤلفين، *ابن بطوطة*، منشورات مدرسة الملك فهد العليا، طنجة، ط١، ١٩٩٦م.

مجموعة مؤلفين، *أساليب التعبير الأدبي*، (د.ط)، دار الشروق، عمان، ١٩٩٧م.

الموافي، ناصر عبدالرزاق، *الرحلة في الأدب العربي*، ط١، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء، القاهرة، ١٩٩٥م.

الموسوعة العربية العالمية، ط١، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٦م.

الميلود، عثمان، *الشعرية التوليدية، مداخل نظرية*، ط١، شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٠م.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، *معجم البلدان*، (د.ط)، دار صادر، بيروت ١٩٧٧م.